

موت القانتات العابدات

الراكعات الساجدات

* آسية بنت مزاحم زوج فرعون اختارت القتل على الملك:

• قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

• قال الحافظ ابن حجر: «من فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه»^(١).

• قال ابن كثير: «روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة».

• قال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل: مَنْ غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها»^(٢).

* ماشطة ابنة فرعون:

• عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت

(١) «فتح الباري» (٥١٦/٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٩٣/٤ - ٣٩٤).

الليلة التي أسري بي فيها، أتت عليّ رائحة طيبة. فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقط المدرّي من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا. قال: ذلك لك علينا من الحق. قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مريض، وكأنها تقاعست من أجله. قال: يا أمّه اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فاقتممت.

قال ابن عباس: تكلم أربعة صغار، عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون^(١).

* العابدة التقية معاذة العدوية: «لا أراني أدرك بعد ذلك فرضاً»:

• كانت أم الصهباء معاذة العدوية تلميذة السيدة عائشة إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تمسي، وإذا جاء الليل

(١) رواه أحمد (٣/٣٠٩)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط. وقال الهيثمي في «المجمع» (١/٦٥): رواه أحمد، والبخاري، والطبراني في «الكبير»، و«الأوسط»، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط.

وقوله: المدرّي: أداة لتسريح الشعر.

بقرة من نحاس: إناء كبير من نحاس كانوا يوقدون تحته ناراً حتى يحترق ويحمر ثم يلقوا فيه من أرادوا.

قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فلا تنام حتى تصبح، وإذا جاء البرد لبست الثياب الرقاق حتى يمنعها البرد من النوم.

● وكانت تقول إذا غلبها النوم: يا نفس الموت أمامك لو قدمت طالت رقدتك في القبور على حسرة أو سرور.

وكانت تقول: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور.

● وعن ثابت البناني أن صلة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابن له، فقال: أي بني تقدم فقاتل حتى أحسبك. فحمل فقاتل حتى قُتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت: مرحباً، إن كنتن جئتن لتهنئتنني، فمرحباً بكن وإن كنتن جئتن بغير ذلك فارجعن.

قالت أم الأسود بنت زيد العدوية - وكانت معاذة قد أرضعتها - قالت لي معاذة لما قتل أبو الصهباء وقُتل ولدها: والله يا بنية ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيد عيش ولا لروح نسيم، ولكن والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربي عز وجل بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة.

● قالت عفيفة العابدة: بلغني أن معاذة العدوية لما احتضرها الموت بكت، ثم ضحكت. فقل لها ممّ بكيت ثم ضحكت؟ فممّ البكاء وممّ الضحك؟

قالت: أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك.

وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلّتان خضروان وهو في نفرٍ والله ما رأيت لهم في الدنيا شبيهاً فضحكت إليه ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضاً فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة^(١).

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ٢٢ - ٢٤).

* ابنة منية البصرية: «التراب يُحْثَى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي»:

• قال أبو عياش القطان: كانت امرأة بالبصرة متعبدة يُقال لها منية، وكانت لها ابنة أشد عبادة منها. فكان الحسن ربما رآها وتعجب من عبادتها على حداتها. فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آت فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت فوشب الحسن فدخل عليها فلما نظرت الجارية إليه بكت.

فقال لها: يا حبيبتى ما يبكيك؟ قالت له: يا أبا سعيد! التراب يُحْثَى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي، يا أبا سعيد انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبراً واسعاً، وكفنها بكفن حسن، والله لو كنت أُجهز إلى مكة لطال بكائي، فكيف وأنا أُجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود؟^(١).

* رابعة العدوية: الزاهدة العابدة الوجلة المحبة الربانية:

جمهور أهل العلم على صلاحها وتقواها وعلو مكانها وكل يؤخذ من قوله ويترك.

• قال محمد بن عمرو: كانت رابعة إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة، وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة^(٢).

• وعن عبدة بنت أبي شوال وكانت من خيار إماء الله، وكانت تخدم رابعة - قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من

(١) «صفة الصفوة» (٤/٢٧).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/٢٨).

مرقدها ذلك وهي فزعة: يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور.

قالت: فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت. فلما حضرته الوفاة دعنتي فقالت: يا عبدة لا تؤذني بموتي أحداً وكفّيني في جبتي هذه، جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون.

قالت: فكفّناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه.

قالت عابدة: رأيته بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلة إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه. فقلت: يا رابعة! ما فعلت الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نزع عني وأبدلت به هذا الذي ترينه عليّ، وطُويت أكفاني وخُتم عليها ورُفعت في عليين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة.

قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا من كرامة الله عز وجل لأوليائه. قالت: فقلت: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى، قالت: وبم وقد كنت عند الناس؟ أي أكثر منها. قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حالة أصبحت من الدنيا وأمست. قالت: فقلت: ما فعل أبو مالك؟ تعني ضيغماً. قالت: يزور الله متى شاء. قالت: قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: بخ بخ أعطي والله فوق ما كان يأمل.

قالت: فمرّني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل: قالت: عليك بكثرة ذكره، أوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك^(١).

(١) «صفة الصفوة» (٢٩/٤ - ٣٠).

* راهبة العابدة أم عثمان بن سودة الطفاوي:

● «عن عثمان بن سودة الطفاوي، وكانت أمه من العابدات، يُقال لها راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي، ويا من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري»^(١).

فراها ذات ليلة في منامه فقال لها: يا أماه كيف أنت؟ قالت: أي بُنيّ إن للموت لكربة شديدة، وأنا بحمد الله لفي برزخ محمود نفترش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور.

* عابدة تخرّ ميتة لما رأت الكعبة:

● عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: دخل قوم حجاج ومعهم امرأة تقول: أين بيت ربي؟ فيقولون: الساعة ترينه فلما رأوه قالوا: هذا بيت ربك أما ترينه؟ فخرجت تشدد وتقول: بيت ربي بيت ربي. حتى وضعت جبهتها على البيت. فوالله ما رفعت إلا ميتة^(٢).

* زهراء الوالدة وموتها شوقاً إلى ربها:

● عن محمد بن سلمة قال: سمعت ذا النون المصري يقول: بينا أنا في بعض أودية بيت المقدس إذ سمعت صوتاً يقول: يا ذا الأيادي التي لا تُحصى، ويا ذا الجود والبقاء متّع بصر قلبي من الجولان في بساتين جبروتك، واجعل همتي متصلة بجود لطفك يا لطيف، وأعذني من مسالك المتحيرين بجلال بهائك يا رؤوف، واجعلني لك في جميع الحالات خادماً وطالِباً، وكن لي يا منور قلبي وغاية طلبي في الفضل صاحباً.

(١) «صفة الصفوة» (٤/٤٢).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/٤١٥).

قال ذو النون: فطلبت الصوت حتى ظهر لي، فإذا امرأة كأنها العود المحترق، وعليها درع من الصوف، وخمار من الشعر أسود قد أضناها الجهد وأفناها الكمد وذوبها الحب، وقتلها الوجد. فقلت لها: السلام عليك. فقالت: وعليك السلام يا ذا النون. فقلت: لا إله إلا الله كيف عرفت اسمي ولم تريني؟ قالت: كشف عن سري الحبيب فرفع عن قلبي حجاب العمى فعرفني اسمك. فقلت: ارجعي إلى مناجاتك. فقالت: أسألك يا ذا البهاء أن تصرف عني شر ما أجد فقد استوحشت من الحياة. ثم خرت ميتة. فبقيت متحيراً متفكراً. فأقبلت عجوز كالوالهة فنظرت إليها، ثم قالت: الحمد لله الذي كرمها. قلت من هذه؟ فقالت: ألم تسمع بزهرء الوالهة؟ هذه ابنتي توهم الناس منذ عشرين سنة أنها مجنونة وإنما قتلها الشوق إلى ربها^(١).

* رقية بنت عبد الله معن الأندلسي: «الولية الكاملية العلية»:

• شقيقة الشيخ أحمد بن عبد الله معن الأندلسي.

«كانت آية من آيات الله في رفع الهمة والزهد والحزم في الطريق والجد، في غاية الإخمال والتقشف والإقلال».

وكان أخوها يقول عنها إنها لفارغة القلب من الدنيا مع الحزم في الدين والتمسك بحبله المتين.

وأثنى عليها أخوها بعد وفاتها وقال: كانت تخبرني بأمور لا يجدها المنتصبون للمشيخة، وحكى عنها أنها قالت له: إني أرى نوراً ينتشر في محل سجودي كلما سجدت وأخاف أن يكون الشيطان يلعب بي. قال: فقلت لها: نعم يخاف من ذلك، ثم قال للحاضرين: هكذا شأن الصديقين يخافون وإن كانوا محققين.

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤).

• وكانت في المرض الذي توفيت فيه مسرورة بقاء الله، جميلة الرجاء فيه، ولما قربت وفاتها جعلت تسأل عن وقت الظهر فأخبرت بدخوله فصلت وماتت. وكانت وفاتها سنة سبع وثمانين وألف^(١).

* موت عابدة بصرية: «ويحك أنام رب العالمين؟»:

• قال ابن الجوزي - رحمه الله -: «بلغنا أن بعض المتعبدات البصريات وقعت في نفس رجل مهلبى وكانت جميلة، وكانت تُخطب فتأبى، فبلغ المهلبى أنها تريد الحج فاشتري ثلاثمائة بغير ونادى: من أراد الحج فليكثر من فلان المهلبى فاكثرته منه، فلما كان في بعض الطريق جاءها ليلاً فقال: إماماً أن تزوجيني نفسك، وإما غير ذلك، فقالت: ويحك اتق الله، فقال: ما هو إلا ما تسمعين والله ما أنا بحمّال ولا خرجت في هذا إلا من أجلك، فلما خافت على نفسها، قالت: ويحك انظر أبقى في الرجال أحد لم ينم؟ قال: لا، قالت: عدّ فانظر فمضى وجاء، فقال: ما بقي أحد إلا وقد نام. فقالت: ويحك أنام رب العالمين؟ ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة. وخرّ المهلبى مغشياً عليه ثم قال: ويحي قتل نفساً ولم أبلغ شهوتي فخرج هارباً^(٢).

* عابدة من عابدات السواحل:

«قال ذو النون: بينا أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرت بجارية عليها أطماز شعر وإذا هي ذابلة ناحلة. فدنوت منها لأسمع ما تقول. فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان، وعصفت الرياح فاضطربت الأمواج فصرخت،

(١) «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» للشيخ محمد بن الطيب القادري (٢٢٠/٢).

(٢) «ذم الهوى» لابن الجوزي (٢٧٦ - ٢٧٧).

ثم سقطت إلى الأرض فلما أفاقت نجت^(١) ثم قالت: يا سيدي بك تفرّد المتفردون في الخلوات، ولعظمتك سبّحت النينان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك اصطفت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدوار، والبحر الزخّار، والقمر النّوار، وكل شيء عندك بمقدار.

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم يا خير من حطّت به النّزّالُ
فقلت: زينا من هذا. فقالت: إليك عني. ثم رفعت طرفها نحو السماء وقالت:

أحبك حُبَّين حبّ الوداد	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حبّ الوداد	فحبّ شُغِلْتُ به عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحُجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا^(٢).

* حسن الخاتمة لأمي رحمها الله سميرة بنت عبدالحليم العفّانية:

تتلو خواتيم سورة النبأ وخواتيم سورة البقرة وهي في الغيبوبة:
كانت رحمها الله كثيرة الصلاة.. كثيرة الصدقة على الأرامل والمساكين
لا تحبس شيئاً عنهم. وحينما أصيبت بجلطة ونُقلت إلى مستشفى التأمين
الصحي ببني سويف ظهرت منها الأعاجيب فقد كان ينتابها في أحيان كثيرة
فقدان الوعي وغيبوبة كاملة عن الوعي فإذا سمعت صوت الأذان رددته - إي
والله - وتأمّر أخي الدكتور سعد قائلة: أريد أن أتوضأ حتى لا تفوتني صلاة

(١) أي: بكت أشد البكاء.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٣٧٤ - ٣٧٥).

الفجر.. أيقظ البنات للصلاة.. كل هذا وهي في الغيوبة وبنات أخي في قرينتا بني عفان بعيداً عنها.. مثلما كانت توقظهن لصلاة الفجر.

ولما أفاقت لحظات من غيبوبتها أوصتني ببناء مستشفى ومسجد على قطعة أرض تملكها.

وقبل موتها مباشرة دخلت في الغيوبة التي ما أفاقت منها حتى موتها رحمها الله، وعزّ عليّ ما تلاقي فقلت بصوت خفي: اللهم لا تُخَوِّجها إلى زوجاتنا أو أحد من خلقك.. فإذا بها تقول، وهي غائبة عن الوعي تماماً: «اللهم إن رحمتك إياي لا تنقصك فهب لي ما لا ينقصك، اللهم إن مغفرتك إياي لا تعجزك فهب لي ما لا يعجزك.. اللهم لا تُخَوِّجني إلى أحد من خلقك ورددت قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبا: ٣١ - ٣٦].

ثم رددت خواتيم سورة البقرة: ﴿.. رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وكان هذا آخر كلمات قالتها وغادرت به دنيانا.. أسكنها الله أعالي الفردوس هي وأبي.. وأورثهما مرافقة الرسول الكريم ﷺ.

* ومسك الختام من بيت النبوة:

السيدة الربانية الصالحة نفيسة، ابنة الحسن بن زيد العلوية الحسنية:

• كانت - رحمها الله - من الصالحات، زاهدة نقية تقية، تقوم الليل، وتصوم النهار، وتكثر البكاء من خشية الله عز وجل، حتى قيل لها: «ترفقي بنفسك» لكثرة ما رأوا منها، فقالت: «كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا

يقطعها إلا الفاترون؟»، حجت ثلاثين مرة، وكانت تحفظ القرآن وتفسيره.
توفيت - رحمها الله تعالى - وهي صائمة، فألزموها الفطر،
فقالت: «وا عجباه! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة،
أفطر الآن؟! هذا لا يكون، وخرجت من الدنيا، وقد انتهت قراءتها إلى
قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

لُبِّسَ عَهْدَكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَّاحِينَا
وهكذا يرحل الربانيون إلى ربهم.. تعطرت الدنيا بأريج حديثهم
وعبادتهم وصدقهم.. والله لولا أن القلوب توقن بليقائهم لتفطرت المرائر
لفراق الصالحين الربانيين، يقول ابن عقيل - رحمه الله -: «وإنما هوّن فقدانني
للسادات نظري إلى الإعادة بعين اليقين وثقتي إلى وعد المبدئ لهم، فلكنائي
أسمع داعي البعث قد دعا، كما سمعت ناعيتهم وقد نعى. حاشا المبدئ لهم
على تلك الأشكال والعلوم أن يقنع لهم من الوجود بتلك الأيام اليسيرة
المشوبة بالتنغيص وهو المالك. لا والله، لا قنع لهم إلا بضيافة تجمعهم على
مائدة تليق بكرمه: نعيم بلا ثبور، وبقاء بلا موت، واجتماع بلا فرقة، ولذات
بغير نغصة» (٢).

ماتوا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شَخْصُهُمْ فَالنَّشْرُ مِسْكٌ وَالْعِظَامُ رَمِيمٌ

(١) «مرآة النساء» ص (٨٢).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/١٦٥).